مجلـــــة الآداب للعلوم الإنســـانيـــة
العـدد الخـــاص، مـارس 2026،
ص ص125- 146
Arts & Humanities Journal
Special Issue, March, 2026,
pp.125 -146

Issn (النسخة الالكترونية): 3006 -757X Issn (النسخة المطبوعة): 3006 -7561

ديوان (البحر حجّتي الأخيرة) لهيفاء الجبري: دراسة سيميائية

الباحثة/ ذكرى علي حمد لسلوم

باحثة بمرحلة الدكتوراه بتخصص الأدب

قسم اللغة العربية وآدابها– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة الملك خالد

Thekra1985@hotmail.com

تاريخ استلام البحث: 27/ 1/ 2026م تاريخ قبوله للنشر: 3/ 2/ 2026م

موقع المجلة: https://taiz.edu.ye/tujr/index.php/ahs

ديوان (البحر حجّتي الأخيرة) لهيفاء الجبري: دراسة سيميائية

أ/ ذكرى علي حمد لسلوم

باحثة بمرحلة الدكتوراه بتخصص الأدب

قسم اللغة العربية وآدابها– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة الملك خالد

ملخص البحث

تناولت الباحثة في هذه الدراسة ديوان «البحر حجّتي الأخيرة» للشاعرة هيفاء الجبري متوسلة بالسيمياء التأويلية لدى تشارلز ساندرس بيرس لما يتيحه هذا المنهج من إمكانية الوقوف على العلامات السيميائية في الديوان وتأويلها بغية الكشف عن أعماقها الدلالية، وهو ما أتاح لها الوقوف على كيفية تحوّل البحر من مجرد عنصر طبيعي إلى علامة كلية مركزية، تتفرّع عنها علامات ثانوية مثل الأمواج والسفن والغرق والمدّ والجزر، بما يعكس أبعادًا وجودية وأنثوية ونفسية متداخلة. كما تبيّن الدراسة كيف يندمج البعد الوجودي بالبعد الأنثوي داخل رمز البحر، ليغدو فضاءً للتأمل، وبوح الذات، والبحث عن المعنى، وهو ما يكشف عن عمق التجربة الشعرية وغناها وتعقيدها لدى الشاعرة.

الكلمات المفتاحية: الرمزية، السيمياء الشعرية، البحر، هيفاء الجبري.

The Poetry Collection *The Sea Is My Final Argument* by Haifa Al-Jabri: A Semiotic Study

Zakra Ali Hamd Lsaloum
PhD Researcher in Literature Academic

Abstract

This semiotic study of Haifa Al-Jubri's poetry collection *The Sea, My Last Argument* explores how the sea transforms from a mere natural element into a central, overarching sign from which secondary signs—such as waves, ships, drowning, and tides—branch out, reflecting intertwined existential, feminine, and psychological dimensions. The study further demonstrates how existential and feminine aspects merge within the symbol of the sea, turning it into a space for contemplation, self-expression, and the search for meaning. This, in turn, reveals the depth, richness, and complexity of the poet's creative experience.

Keywords: Symbolism, Poetic Semiotics, The Sea, Haifa Al-Jubri.

المقدمة

يُعدّ الشعر فضاءً دلاليًا خصبًا تتداخل فيه العلامات والرموز لتشكّل شبكة من المعاني التي تتجاوز المستوى اللغوي الظاهر إلى آفاق تأويلية عميقة. ومن هنا برزت السيميائيات بوصفها علمًا يُعنى بدراسة العلامة وأنظمتها الدلالية، وكيفية اشتغالها داخل النصوص الأدبية؛ إذ لا تُفهم العلامة بوصفها عنصرًا لغويًا معزولًا، بل باعتبارها بنية مركّبة تنتج معناها من خلال علاقاتها الداخلية وسياقها النصي والثقافي. وقد أسهم هذا المنهج في تطوير آليات قراءة النص الشعري، والانتقال من القراءة الانطباعية إلى التحليل المنهجي القائم على تفكيك البنى الدلالية.

يُعدّ رمز البحر من أكثر الرموز حضورًا في الشعر العربي قديمه وحديثه، لما يحمله من طاقات دلالية متعدّدة تتراوح بين الامتداد والعمق، والاحتواء والخطر، والحياة والموت. وقد أظهر تتبّع تمثّلات هذا الرمز في التجارب الشعرية الحديثة، في ضوء المقاربة السيميائية، أنّه تجاوز بعده الوصفي المرتبط بالطبيعة ليغدو علامة رمزية تعبّر عن حالات نفسية ووجودية معقّدة، حيث يتحوّل البحر إلى فضاء دلالي تُسقِط عليه الذات الشاعرة قلقها وأسئلتها الوجودية، وهو ما تؤكده دراسات الرمز في النقد الحديث[1].

يوظَّف البحر في ديوان *"البحر حجّتي الأخيرة"* للشاعرة هيفاء الجبري بوصفه علامة مركزية تتفرّع عنها علامات أخرى مثل: الموج، الغرق، السفينة، المدّ والجزر، لتشكّل فيما بينها نسقًا دلاليًا متكاملًا.

تنبع أهمية هذه الدراسة من كونها تقدّم قراءة سيميائية تطبيقية لنص شعري نسوي معاصر، بالاعتماد على نظرية تشارلز ساندرس بيرس، بما يسمح بالكشف عن آليات إنتاج المعنى داخل النص الشعري من خلال العلاقة الثلاثية بين العلامة والموضوع والمؤول. كما تسهم الدراسة في إثراء البحث النقدي السيميائي من خلال التركيز على ديوان واحد، وتحليل رمز مركزي ضمن مستويات دلالية وتحليلية وتأويلية متكاملة.

---

1) آليات الفهم والتأويل في الخطاب الشعري المعاصر: قراءة سيميائية في شعر يوسف وغليسي. *المجلة الجزائرية للأبحاث والدراسات*، المجلد 40، العدد 40، أكتوبر 2021، ص 80–83.

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- الكشف عن البنية السيميائية لرمز البحر في ديوان «*البحر حجّتي الأخيرة*».
- تحليل العلاقة بين العلامة والموضوع المؤول في الديوان وفق نظرية بيرس.
- تفسير تحوّل البحر من عنصر طبيعي إلى علامة دلالية ذات أبعاد وجودية وأنثوية.

تنطلق الدراسة من مجموعة من التساؤلات، هي:

- كيف تتشكّل البنية السيميائية لرمز البحر في الديوان؟
- ما طبيعة العلاقة الثلاثية (العلامة– الموضوع– المؤول) في تمثيل البحر؟
- كيف يتحوّل البحر من مدلول حسي إلى دلالة رمزية وجودية وأنثوية؟

منهج البحث وخطته

تعتمد الدراسة على المنهج السيميائي وفق نظرية تشارلز ساندرس بيرس، من خلال تطبيق المستويات الدلالية والتحليلية والتأويلية على نصوص الديوان. وتتوزّع خطة البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث تطبيقية، تعقبها خاتمة تتضمن أبرز النتائج والتوصيات.

التمهيـد

أولًا: نبذة عن الشاعرة هيفاء الجبري

هيفاء الجبري هي شاعرة سعودية واعدة، ولدت في مدينة الرياض، ودرست اللغة الإنجليزية بجامعة الملك سعود حتى حصلت على درجة البكالوريوس ثم درجة الماجستير في الترجمة الإنجليزية من الجامعة نفسها، بدأت تجربتها الشعرية عام 2015م بصدور ديوانها الأول "تداعى له سائر القلب" وقد مثل انطلاقة أدبية قوية تنبئ عن شاعرة ذات تجربة ثرية ومفعمة، وتواصلت مسيرة هيفاء الجبري بصدور ديوان "البحر حجتي الأخيرة" عن مؤسسة الانتشار العربي عام 2016م، ثم صدر لها ديوان ثالث بعنوان "الصدى يخرج من الغرفة" في عام 2020م، كما حصلت هيفاء الجبري

على جائزة الأمير عبد الله الفيصل العالمية للشعر العربي في دورتها الثانية لعام 2020م عن فرع القصيدة المغناة، وذلك عن قصيدة "دمشق"[2].

وتُعدّ الشاعرة هيفاء الجبري من الأصوات الشعرية النسوية المعاصرة التي استطاعت أن ترسّخ حضورها في المشهد الأدبي العربي من خلال تجربة شعرية تتسم بالعمق الدلالي وكثافة الرمز[3].

تنتمي الجبري إلى جيل شعري حديث يسعى إلى تجاوز المباشرة اللغوية، والارتقاء باللغة الشعرية إلى مستويات إيحائية قادرة على التعبير عن التجربة الذاتية والوجودية للمرأة المعاصرة في علاقتها بالذات والعالم.

تتجلّى خصوصية التجربة الشعرية لدى هيفاء الجبري في اعتمادها على الرمز بوصفه أداة فنية مركزية؛ إذ تحضر الطبيعة في نصوصها حضورًا دلاليًا كثيفًا، لا بوصفها مشهدًا وصفيًا، بل باعتبارها علامة تعبّر عن حالات نفسية وإنسانية مركّبة. ويُعدّ البحر من أبرز الرموز التي تتكرر في شعرها، حيث يتخذ أبعادًا متعددة تتراوح بين الاحتواء والاتساع، والخطر والانكسار، والبحث عن الخلاص. وقد جاء ديوانها *"البحر حجّتي الأخيرة"* ليجسّد هذا التوظيف الرمزي، إذ يتحوّل البحر فيه إلى محور دلالي تنتظم حوله باقي الصور والعلامات الشعرية.

وتكشف لغة هيفاء الجبري الشعرية عن ميل واضح إلى التكثيف والانزياح، مع حضور لافت للصورة الشعرية القائمة على الإيحاء والتلميح، مما يجعل نصوصها قابلة لقراءات متعددة ويمنحها بعدًا تأويليًا غنيًا. ويتجلّى ذلك بوضوح في قصيدتها «تفاحة في الخيال»، حيث تُبنى التجربة الشعرية على تكرار تركيبي دال مثل قولها: «لا تزال هنالك

---

2) ينظر: مجلة اليمامة:
http://a.alyamamahonline.com/ItemDetails.aspx?articleId=3829
أكاديمية الأدب:
https://www.aladab-academy.com/post/%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%84%D9%81-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AF%D8%A8%D9%8A-%D9%87%D9%8A%D9%81%D8%A7%D8%A1-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%A8%D8%B1%D9%8A

3) الحربي، حسين. (2020) قصيدة «مِنه دمشق» وجدان متدفق دون سابق إنذار. الرياض. نُشر في: الأحد 5 ذو الحجة 1441هـ/ 26 يوليو 2020م. هيفاء الجبري، الفائزة بجائزة الأمير عبدالله الفيصل العالمية للشعر العربي.

تفاحة تتجرأ / أن تتمدد فوق الظلال»، و«لا يزال الشجار على الظل»، و«لا يزال من الأرض يخرج وفد شياطين»، وهو تكرار يوحي باستمرار معاناة المرأة وتجذرها تاريخيًا، مقابل إصرار الذات الأنثوية على المقاومة والحلم بالفكاك.[4]

كما تستثمر الشاعرة الصورة الرمزية المكثفة، مثل صورة التفاحة التي تتجاوز دلالتها المباشرة لتغدو علامة على الرغبة والحرية والحلم المؤجل، في مقابل صور القمع والتسلط التي تتمثل في «جيوش الشياطين» و«شهوة الجور»، وهو ما يعكس بنية دلالية مفتوحة تستدعي التأويل ولا تُغلق على معنى واحد. ويزداد هذا البعد التأويلي عمقًا في قصيدة «بدء وانتهاء» التي تختم بها ديوانها الأول، حيث تحضر فكرة الوأد المعنوي للأنثى صراحة في قولها: «آخر العمر تراب وأنا / في تراب منذ أن كان العمر»، و«كنهاياتي، بداياتي: / حفر»، بما تحمله هذه الصورة من إيحاء بالفراغ والسقوط في هوة الإلغاء الوجودي[5].

ثانيًا: مفهوم السيميائية ونظرية بيرس

تُعدّ السيميائية من المناهج النقدية الحديثة التي تُعنى بدراسة العلامات وأنظمتها الدلالية، وكيفية اشتغالها في إنتاج المعنى داخل الخطابات المختلفة، ومنها الخطاب الأدبي. ويقوم هذا العلم على افتراض أن المعنى لا يُعطى بصورة مباشرة، بل يتشكّل عبر منظومة من العلامات التي تتفاعل فيما بينها داخل سياق محدد. وقد أسهمت السيميائية في إحداث نقلة نوعية في النقد الأدبي، إذ انتقلت بالنص من كونه وعاءً للمعنى إلى كونه بنية دلالية مفتوحة قابلة للتأويل.[6]

وتُعدّ نظرية تشارلز ساندرس بيرس من أبرز النظريات السيميائية التي قامت على تصور ثلاثي للعلامة؛ إذ يرى بيرس أن العلامة تتكوّن من ثلاثة عناصر متلازمة: المُمثِّل (العلامة)، وهو الشكل الحسي أو اللغوي الذي يقوم مقام شيء آخر؛ والموضوع، وهو الشيء أو المفهوم الذي تشير إليه العلامة؛ والمؤول، وهو الأثر الذهني أو الفهم

4) هيفاء الجبري، «الصدى يخرج من الغرفة»، دار تشكيل للنشر والتوزيع، 2020، ص. 1–10.
5) محمد الشنطي، التجربة الشعرية الحديثة في المملكة العربية السعودية (حائل: النادي الأدبي، ط1، ص3–6)
6) فيصل الأحمر، «معجم السيميائيات»، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010، ص. 1–6.

الذي يتكوّن لدى المتلقي نتيجة تفسير العلامة. ولا تكتمل عملية الدلالة، وفق بيرس، إلا بتفاعل هذه العناصر الثلاثة ضمن عملية تأويلية مستمرة.[7]

يُعدّ تشارلز ساندرز بيرس من أبرز منظّري السيميائيات؛ إذ صنّف العلامات إلى ثلاثة أنماط رئيسة: الأيقونة، التي تقوم على علاقة المشابهة بين العلامة وموضوعها؛ والمؤشِّر، الذي يستند إلى علاقة سببية أو مجاورة؛ والرمز، الذي يقوم على العرف والاتفاق الثقافي. ويُلاحظ، من خلال هذا التصنيف، أن الرمز يكتسب أهمية خاصة في الخطاب الشعري، لما يتمتع به من طاقة إيحائية وقدرة على توليد دلالات متعددة تتجاوز المعنى المباشر، وهو ما طوّره لاحقًا عدد من منظّري السيميائيات والنقد الحديث مثل رولان بارت ومحمد مفتاح وصلاح فضل، في مقارباتهم للدلالة والرمز داخل النص الأدبي.[8]

وانطلاقًا من هذا الإطار النظري، تتيح السيميائية البيرسية أدوات تحليلية فعّالة لقراءة النص الشعري، من خلال تتبّع العلامات ورصد علاقاتها وتحولاتها داخل البنية النصية. كما تسمح بالكشف عن الأبعاد التأويلية للرمز الشعري، بعيدًا عن التفسيرات الخارجية المرتبطة بسيرة الشاعر أو ظروفه الشخصية. وبذلك تُعدّ نظرية بيرس إطارًا مناسبًا لتحليل رمز البحر في ديوان «البحر حجّتي الأخيرة»، بوصفه علامة مركزية تتولّد عنها شبكة دلالية معقّدة تسهم في بناء المعنى الشعري.

7 عبد الملك مرتاض، «الأصول السيميائية في فكر شارل بيرس»، أرشيف الشارخ للمجلات الأدبية والثقافية العربية، العدد 4، يونيو 1992، ص.13–17.

8 محمد حسين محجوب، «تشالرز ساندرز بيرس فيلسوف الأثر»، مجلة كلية الآداب– جامعة مصراتة، العدد 6، يونيو 2016، ص.6–10.

المبحث الأول: المستوى الدلالي– البحر بوصفه علامة كبرى وعلامات فرعية

يشكّل البحر في ديوان «البحر حجّتي الأخيرة» لهيفاء الجبري العلامة المركزية أو «العلامة الكبرى» التي تنتظم حولها البنية الدلالية للنصوص الشعرية؛ إذ لا يُستحضر البحر بوصفه عنصرًا طبيعيًا أو خلفية مكانية محايدة، بل يتحوّل إلى فضاء رمزي كثيف الدلالات، تتقاطع فيه أبعاد الوجود والذات والأنوثة والذاكرة والقلق الإنساني. ومن هذا المنطلق يغدو البحر مركزًا تأويليًا تتفرّع منه علامات ثانوية عديدة، تتفاعل فيما بينها لتشكّل شبكة سيميائية متماسكة تُنتج المعنى وتؤسّس أفق القراءة.

إنّ تحليل المستوى الدلالي في هذا الديوان يقتضي النظر إلى البحر بوصفه «نسقًا دلاليًا مفتوحًا»، تتولّد منه رموز فرعية لا تستمد معناها بمعزل عنه، بل تتحدد قيمتها الدلالية من خلال علاقتها بالعلامة الكبرى، في إطار ما يمكن تسميته بـ«الدائرة السيميائية المغلقة» التي تحكم الخطاب الشعري.

البحر كعلامة كبرى

يحضر البحر في الديوان بوصفه كيانًا حيًا، ذا بعد إنساني أنثوي في آنٍ واحد، يتكلم، ويتحوّل، ويحتوي، ويُنتج الخوف والرجاء معًا. فهو فضاء الاعتراف الأخير، وملاذ الذات في مواجهة العالم، كما يدل عليه عنوان الديوان ذاته «البحر حجّتي الأخيرة»، حيث يُسند إلى البحر دور «الشاهد» و«الحجة» و«المُبرِّر الوجودي».

ويتعزز هذا البعد في قول الشاعرة:

حيثُ يُروى عن المحارةِ أنّ
البحرَ قد كان امرأةً ذاتَ حُرقةْ

فالتحوّل هنا من البحر إلى «امرأة ذات حرقة» يؤسّس لعلاقة تماهٍ بين الذات الأنثوية والبحر، ويكشف عن بعد اعترافي يجعل من البحر امتدادًا للجسد والوجدان والذاكرة. إنّ البحر في هذا السياق ليس خارجيًا، بل هو صورة داخلية مكثفة تعكس احتراق الذات، وانكسارها.

ويظهر البحر باعتباره كل كبير في سردية الشاعرة، وهذا الكل الكبير تتجلى من

خلاله تفاصيل الشتات والعزلة التي تبثها فيه الشاعر في أول القصيدة:

وحـــدها لـم تـزل تقـدم للبحـــ ـــــر شـــتاتًا وعزلـــة واحتراقًـــا

بينما تأتي أجزاء هذا البحر وعناصره لتروي قصة هذا الشتات وتلك العزلة والاحتراق، وقد اختارت الشاعرة المحارة لتصبح هي من تروي عن البحر كل هذا، واختيار المحارة ملائم لهذا الأمر من حيث هي كائن مكون من صدفتين مغلقتين بإحكام، فهي قادرة أن تحوي بوح القلوب وأسرارها؛ إذ لابد لهذا البوح من مستودع آمن، فلو بُث هذا البوح في الماء لذاب فيه واختفى.

كما يبدو أن البحر قد تحول إلى ساحة لل "الذكورة" بعد أن أغرق الأغنيات، حيث تقول:

أخـذ الـنجم فـي يديـه وألقـى بينمـا كانـت المحـارات فرقـة
أغـرق الأغنيـات شـيئًا فشـيئًا ونمـــى كالصـراط والمـاء فوقـه
هكـــذا صـــارت الـــذكورة بحـــرًا جاء في غيه من الموت زرقة

وهنا نلحظ تحول العلامة من الضد إلى الضد على نحو درامي.

الأمواج– ديناميكية القلق والتحوّل

تُعدّ الأمواج من أبرز العلامات الفرعية المتولّدة عن البحر؛ إذ ترمز إلى الحركة الدائمة، وعدم الاستقرار، والتقلّبات النفسية التي تعصف بالذات الشاعرة. فالموج لا يهدأ، كما لا تهدأ الذات القلقة، وهو ما يجعل هذه العلامة حاملة لدلالة التحوّل والصراع الداخلي.

يتجلّى ذلك في قولها:

حتى تستلمَ الرحلةَ أعباءُ الشاطئ
يحتاج البحر مراراً أن يقتل آلام الريح
لكيلا تهوي في العمق السفن الموجوعة
تنزع من قلق الأعماق أسراراً كتب عليها أن تبقى للبحر

يشير هذا المقطع إلى أن الأمواج تعكس الاضطراب الداخلي للشاعرة، فهي ليست مجرد ظاهرة طبيعية، بل دلالة على التوتر النفسي والتحولات المتلاحقة في المشاعر،

ما يجعلها علامة أساسية لفهم البنية الدلالية للنص؛ فالموج هنا ليس عنصرًا طبيعيًا فحسب، بل قوّة داخلية تحاول حماية «السفن الموجوعة»، أي الذات المجروحة، من السقوط في العمق/الهاوية. ويتحوّل الموج إلى آلية دفاع نفسي، تقاوم الانهيار وتحاول إعادة التوازن.

السفن– الرحلة والبحث عن الذات

تمثل السفن علامة دلالية مرتبطة بفكرة الرحلة، والغربة، والبحث عن المعنى. فهي كيان هشّ يتحرّك فوق فضاء واسع وخطر، تمامًا كما تتحرك الذات الإنسانية وسط وجود متقلّب. وغالبًا ما تأتي السفن في الديوان مقرونة بالألم أو الجراح، ما يعكس هشاشة التجربة الإنسانية.

تقول:

لكيلا تهوي في العمق السفن الموجوعة
تنزع من قلق الأعماق أسرارًا

تدل السفن هنا على الذات الباحثة عن خلاص، عن «سرّ» وجودي مخبوء في الأعماق. وهي علامة تعكس القلق الوجودي، والارتحال الدائم دون يقين، ما يرسّخ البعد الفلسفي للنص.

الغرق

يظهر الغرق باعتباره أحد المفردات الأساسية المتعلقة بالبحر، وهو علامة تحمل أبعادًا دلالية مكثفة على التعمق والغوص في أعماق حالة عاطفية أو شعورية جارفة، كما يأتي في قول الشاعرة:

فيـا غرق البحـار ما لك لا ترى؟
كفـاكَ من العشاق ما أنت حامله

إن غرق البحار في البيت السابق يرمز إلى الضياع والتيه في الحب للذين وقعوا في الهوى وتعثرت أقدامهم في أعماقه حتى صـاروا غرقى، فالغرق هنا معادل موضوعي لغلبة العشق على العشاق حتى وصلوا فيه إلى منزلة الغريق الذي لا يرى لنفسه نجاة مما هو فيه.

ويبدو أن هذه الدلالة للفظة الغرق تغلب على المعجم الشعري لهيفاء الجبري في هذا الديوان، حيث تقول في قصيدة أخرى:

اذهب الآن واغـرق بما قد
صببت فثمة موت قد عرفنـاه

إن الغرق –هنا– له معنى مساوق لمعنى الامتلاء من الأشياء والمشاعر كالحزن والفرح والألم والحب وغيرها، فإذا تتبعنا الأبيات التي تسبق هذا البيت تأكد لنا هذا المعنى، حيث تقول:

صـب ريـح المـدائن فـي الرمـل حتـى يسـير الكثيـب إلـى منتهـاه
صـب دمـع البحيـرة فـي البحـر سوف ترى ثورة في ضمير المياه
صـب قلـب السـكينة فـي فتحـات الكـلام ودع صـيحة فـي قفـاه
صـب عـين الشـياطين عميـاء كـي لا تضيع بما قد رأوه حقوق العراة
صـب مـا قـد تقـدم مـن ألـم إنـه ها هنا صنم قد سـر من رآه

ويلاحظ بعد الاطلاع على هذه الأبيات أن الغرق كان نتيجة حتمية للصب الذي وصل بها حد الامتلاء بالمعاني والأشياء حتى تهيأت تمامًا للغرق والذوبان فيها.

المدّ والجزر: تحوّلات الذات وإيقاع الوجود

يمثّل المدّ والجزر في ديوان «البحر حجّتي الأخيرة» علامة دلالية ثانوية ذات حضور مكثّف، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالعلامة الكبرى، أي البحر، وتشكّل أحد أبرز المفاتيح التأويلية لفهم التحوّلات النفسية والوجدانية التي تمرّ بها الذات الشاعرة. فظاهرة (المدّ والجزر) لا تستحضر بوصفها ظاهرة طبيعية فحسب، بل تتحوّل إلى رمز مركزي لحركة الوجود الإنساني، وإيقاع المشاعر المتقلّبة بين الحضور والغياب، الامتلاء والفراغ، الأمل والانكسار.

إنّ المدّ، بما يحمله من دلالة الارتفاع والاقتراب والامتلاء، يقابله الجزر الذي يرمز إلى الانحسار، والانكفاء، والفقد. وبين هذين القطبين تتحرك الذات الشعرية، في مسار دائري يعكس طبيعة التجربة الإنسانية القائمة على التكرار والتحوّل، لا على الثبات والاستقرار. ومن هنا، يصبح المدّ والجزر استعارة كبرى لدورة الحياة ذاتها، ولعلاقة

الإنسان بالزمن والذاكرة، ويتجلّى هذا المعنى بوضوح في قول الشاعرة:

إذا غادر الماء البحار فما له
من البحر غير الذكريات الموالح
يعيش غريباً في عيون تقعرت
ليُقحم بحراً في رمال الملامح

تُظهر هذه الأبيات حالة الفقد الناتجة عن الجزر، حيث يغادر الماء البحر، فلا يبقى منه سوى «الذكريات الموالح». فالملوحة هنا ليست مجرد صفة حسّية، بل دلالة رمزية للألم والتجربة القاسية، وكأن الذاكرة لا تحتفظ إلا بما كان موجعًا. ويغدو الماء، بعد مغادرته البحر، كائنًا غريبًا، يعيش في «عيون تقعّرت»، وهي صورة دالّة على الانكسار والفراغ الداخلي.

إنّ إدخال «بحر» في «رمال الملامح» يعبّر عن محاولة قسرية لاستعادة الامتلاء بعد الجزر، أي عن صراع الذات مع الفقد، وسعيها الدائم إلى ملء الفراغ الوجودي بما تبقّى من آثار الماضي. وهنا يتجلى المدّ والجزر كآلية نفسية تحكم علاقة الذات بذاتها وبالعالم، حيث لا استقرار دائم، بل حركة مستمرة بين حالتين متناقضتين.

ومن منظور سيميائي يمكن النظر إلى المدّ والجزر بوصفهما نظامًا دلاليًا مزدوجًا، تتولّد منه معانٍ متعدّدة تتقاطع مع مفاهيم الزمن، والذاكرة، والتحوّل. فهما لا يعملان بمعزل عن البحر، بل يشكّلان امتدادًا لوظيفته الرمزية، ويعزّزان حضوره بوصفه فضاءً داخليًا يعكس اضطراب الذات وانكساراتها المتكررة.

المتضادّات

تُعدّ ثنائية المتضادّات من أبرز الأدوات الدلالية التي تعتمدها هيفاء الجبري في ديوانها، حيث تقوم على الجمع بين متضادات مثل الماء والنار، الاحتراق والانطفاء، العزلة والامتلاء، لتوليد رمزية مركّبة تعكس عمق الصراع الداخلي الذي تعيشه الذات الشاعرة. ولا تأتي هذه المتضادّات بوصفها تقابلًا بسيطًا، بل بوصفها بنية جدلية تتداخل فيها الدلالات، وتنتج معنى جديدًا يتجاوز حدود التضاد التقليدي.

يتجلى هذا التوظيف بوضوح في قولها:

وحدها لم تزل تُقدم للبحر
شتاتاً وعزلة واحتراقا

فالبحر الذي يُفترض أن يكون رمزًا للماء والاحتواء، يتلقّى «احتراقًا»، أي عنصرًا نقيضًا لطبيعته. وهذا التداخل بين الماء والنار يخلق توترًا دلاليًا يعكس حالة الانقسام الداخلي للذات، حيث لا تجد خلاصها في أحد القطبين، بل تعيش تمزّقًا دائمًا بينهما.

إنّ تقديم «الشتات» و«العزلة» للبحر يشير إلى أن الذات لا تودع فيه السكينة أو الطمأنينة، بل تُلقي فيه ما تبقّى من انكساراتها، وكأن البحر يتحوّل إلى مستودع للآلام والاحتراقات الداخلية. ومن هنا، تصبح المتضادّات وسيلة لتكثيف التجربة الشعورية، لا لتبسيطها، حيث تعبّر عن تعقيد الحالة النفسية، واستحالة الوصول إلى توازن نهائي.

ومن الناحية السيميائية، تعمل المتضادّات على توسيع أفق الدلالة؛ إذ تتيح للنص أن يتحرّك في أكثر من اتجاه تأويلي، وتمنحه قدرة على احتواء التناقضات الوجودية التي تطبع التجربة الإنسانية، لا سيما التجربة الأنثوية التي تتشكّل في سياق الصراع مع الذات والعالم والذاكرة.

المبحث الثاني: المستوى التحليلي– العلاقات الداخلية بين العلامات

ينشغل هذا المبحث بتحليل العلاقات الداخلية بين العلامة الكبرى، المتمثّلة في «البحر»، والعلامات الفرعية المتولّدة عنها في ديوان هيفاء الجبري «البحر حجّتي الأخيرة»، وذلك من خلال الكشف عن آليات تشابك هذه العلامات وتفاعلها داخل البنية النصية، بما يُنتج خطابًا شعريًا متماسكًا ومركّبًا. فالعلامات في هذا الديوان لا تظهر بصورة عشوائية أو منفصلة، بل تنتظم ضمن نظام دلالي دقيق تحكمه علاقات ترابط وتداخل، تجعل من البحر مركزًا سيميائيًا تدور حوله باقي الرموز.

لا يقتصر حضور البحر في النصوص على كونه عنصرًا وصفيًا أو فضاءً مكانيًا، بل يتجاوز ذلك ليغدو محورًا بنيويًا تتحرك من خلاله بقية العلامات الثانوية، مثل الأمواج، والسفن، والغرق، والمدّ والجزر، والمتضادّات. وتُسهم هذه العلامات في تشكيل بنية دلالية متشابكة تعبّر عن التجربة النفسية والوجودية والأنثوية للشاعرة، حيث تتداخل المستويات الشعورية مع الأبعاد الرمزية لتوليد معانٍ متعدّدة وقابلة للتأويل.

شبكة العلامات ودورها في النص

تتشكّل البنية النصية للديوان وفق منطق الشبكة الدلالية، حيث ترتبط العلامات بعضها ببعض عبر علاقات تكامل وتضاد وتجاور، دون أن تفقد صلتها بالعلامة الكبرى. فالبحر يمثّل نقطة الانطلاق الدلالية التي تمنح العلامات الثانوية معناها، وتحدّد وظائفها داخل النص. ومن هنا، لا يمكن قراءة الأمواج أو السفن أو الغرق أو المدّ والجزر بوصفها رموزًا مستقلة، بل ينبغي فهمها ضمن السياق الكلي الذي ينتجه البحر بوصفه مركزًا رمزيًا.

تُجسّد الأمواج التقلّبات النفسية والانفعالات الداخلية التي تعيشها الذات الشاعرة، بينما تعبّر السفن عن الرحلة الوجودية، والبحث الدائم عن المعنى، والسعي إلى الخلاص أو النجاة. أما الغرق، فيحمل دلالة المواجهة مع المجهول، والانزلاق نحو العمق النفسي، حيث تتكثّف المخاوف والقلق الوجودي. في حين يرمز المدّ والجزر إلى التحوّلات المستمرة، وحركة الزمن، وتقلبات الذاكرة بين الحضور والغياب. ويأتي المزج بين العناصر المتضادّة، مثل الماء والنار، ليضيف بعدًا رمزيًا مركّبًا يعكس التوتر الداخلي والصراع النفسي الذي يطبع التجربة الشعرية.

إنّ تفاعل هذه العلامات داخل النص يُنتج نظامًا دلاليًا متكاملًا، تتداخل فيه المستويات النفسية والرمزية، وتتحوّل فيه العلامات من مجرد أدوات تعبير إلى مكوّنات بنيوية فاعلة في تشكيل المعنى.

وتتجلى شبكة العلامات من خلال:

أ- الأمواج والسفن

تُظهر الأمواج والسفن تفاعل الحركة الداخلية للذات مع رحلة الوجود؛ إذ ترمز الأمواج إلى التقلّبات النفسية والانفعالات المتغيرة، بينما تمثل السفن الرحلة الوجودية للذات في فضاء النص الشعري. يظهر هذا التفاعل في البيت التالي:

حتى تستلمَ الرحلةَ أعباءُ الشاطئ

يحتاج البحر مراراً أن يقتل آلام الريح

يعكس هذا البيت مدى تأثر الذات بالتقلبات الداخلية، وكيف تساهم العلامات المائية في رسم صورة النص الشعوري، حيث تعمل الأمواج كمرآة للتوتر والاضطراب

والصراعات الداخلية، ففي قصيدة بعنوان "كي أُسمّى ضياعًا"، تقول:

تتـداعى الأمـواج والبحـر يبقـى الـ ـبـحر صـبرًا علـى جـموع التداعي

حيث تبدو صورة الأمواج المتداعية المتلاطمة معادلًا رمزيًا للديناميكية والحركة في البحر، الذي يظهر باعتباره رمزًا للثبات والتحمل أمام أمواجه التي تنزع دائما للحركة والجلبة، وهنا لا شك تبرز إحدى الثنائيات الضدية التي يمكن أن نسميها بثنائية (الحركة/ الثبات) // (الاندفاع/ الصبر).

فيما تُمثل السفن محاولة للسيطرة على الرحلة ومواجهة التحديات.

ب- الغرق والمد والجزر

يمثل الغرق والمد والجزر التوتر النفسي والتغير المستمر الذي يمر به الإنسان في مواجهة ظروف الحياة المختلفة.

جـ- الرمزية المركبة

توظف الشاعرة الجمع بين المتضادّات، مثل النار والماء، لتوليد رمزية مركبة تعكس صراعات الذات

تحليل العلاقات الداخلية

يمكن تقسيم العلاقات بين العلامة الكبرى والعلامات الثانوية إلى عدة مستويات:

- **العلاقات التفاعلية:** حيث تتفاعل العلامات الفرعية مع بعضها البعض ومع البحر لإنتاج معنى متكامل، فالأمواج والسفن والغرق لا تعمل بمعزل عن البحر، بل تستمد كل واحدة منها معناها من العلامة الكبرى.
- **العلاقات التكميلية:** بعض العلامات تعمل على دعم معاني أخرى، مثل المد والجزر اللذين يعززان الرمزية العامة للبحر ويكملان دلالات الأمواج والسفن.
- **العلاقات المركبة:** المزج بين المتضادّات (النار والماء) يولد أبعادًا إضافية من المعنى، مما يوسع شبكة الدلالات ويثري القراءة التحليلية للنص.

تُظهر هذه العلاقات كيف أن كل علامة ثانوية تساهم في تكوين منظومة دلالية مترابطة، تجعل البحر محورًا أساسيًا تتحرك حوله جميع الرموز والأحداث داخل النص الشعري.

يتضح من خلال التحليل أن العلاقات الداخلية بين العلامة الكبرى والعلامات الثانوية تشكّل شبكة متكاملة تضمن وحدة النص وتماسكه. فالبحر هو المحرك الأساسي الذي تنبثق منه العلامات الثانوية، مثل الأمواج والسفن والغرق والمد والجزر، التي تعكس أبعادًا وجودية ونفسية وأنثوية. كما أن المزج بين الرموز المتضادة يعزز من عمق النص ويبرز قدرة الشاعرة على إنتاج بنية شعرية متشابكة ومعقدة، حيث لا تعمل أي علامة بمعزل عن الأخرى، بل تتضافر جميعها لتشكيل شبكة دلالية متماسكة تكشف عن التجربة الإنسانية والوجدانية في الديوان.

المبحث الثالث: المستوى التأويلي– التحولات الدلالية بين الرمزية الوجودية والأنثوية

يهدف هذا المبحث إلى تأويل رمز البحر في ديوان هيفاء الجبري «البحر حجّتي الأخيرة»، من خلال دراسة التحولات الدلالية التي تجسّد أبعادًا وجودية وأنثوية متكاملة. يكشف التحليل التأويلي أن البحر لا يقتصر على كونه مجرد عنصر طبيعي أو رمز شعري تقليدي، بل يتحرك في أفق دلالي متعدد المستويات، يتيح للباحث فهم العلاقة بين العلامة الكبرى (البحر) والعلامات الفرعية، مع الكشف عن أبعادها النفسية والوجودية والأنثوية.

1- البعد الوجودي للبحر

يمثل البحر في النصوص الشعرية للشاعرة وجود الإنسان بكل أبعاده: الحياة والموت، الحركة والسكون، الرحلة والاغتراب، التساؤل عن المعنى، والتأمل في المجهول. فهو يصبح فضاءً رمزيًا يعكس رحلة الإنسان في مواجهة الصعوبات والتحديات، ووسيلة لفهم الذات ومكانها في الكون.

تتجلى هذه الدلالات في الأبيات الآتية:

حتى تستلمَ الرحلةَ أعباءُ الشاطئ
يحتاج البحر مراراً أن يقتل آلام الريح
لكيلا تهوي في العمق السفن الموجوعة

تشير هذه الأبيات إلى التوتر الوجودي للذات في مواجهة المجهول، حيث تمثل السفن الموجوعة الإنسان الساعي إلى معرفة الذات ومواجهة العوائق، بينما ترمز

الأعماق إلى الغموض الوجودي الذي يكتنف التجربة الإنسانية. هنا يصبح البحر أكثر من مجرد عنصر طبيعي فهو فضاء للتأمل الوجودي، يعكس الصراعات الداخلية والقلق النفسي، ويجسد رحلة الإنسان في فهم معاني الحياة والموت.

كما يظهر البعد الوجودي في نصوص أخرى، مثل:

من حمّل القطرة يا سيدي
أن تصبح البحر الذي نخشى
أمامنا ماء، ملائكة
بأي وحي نصنع العرشا؟!

هنا يتحوّل البحر إلى مركب رمزي شامل يجمع بين الخوف والتأمل والجمال، ويعكس التساؤلات الوجودية حول سر الكون ومكان الإنسان فيه، بما يعزز قدرة النص على إنتاج دلالات عميقة ومتعددة المستويات.

2- البعد الأنثوي للبحر

يتخذ البحر -بالإضافة إلى البعد الوجودي- في النصوص الشعرية بعدًا أنثويًا، يجسد تجربة الذات النسائية في مواجهة الحنين والغربة والانكسار النفسي، فهو يمثل مساحة شخصية للتعبير عن المشاعر الداخلية المتشابكة والمعقدة، حيث يتحول إلى فضاء وجداني يعكس الصراع النفسي والتحرر العاطفي.

يتضح هذا في نصوص مثل:

وحدها لم تزل تُقدم للبحر
شتاتاً وعزلة واحتراقا

في هذه الأبيات يجسد البحر الحرية والانفتاح (عن طريق الماء) والصراع الداخلي والانكسار النفسي (عن طريق النار) ليصبح فضاءً لتجربة وجدانية مركبة. هذا البعد الأنثوي يعكس مشاعر الحنين والانكسار والغربة، ويحول البحر إلى حاضنة للذات الأنثوية، قادرة على التعبير عن المشاعر الخاصة بالصراع النفسي والتحرر العاطفي في الوقت نفسه.

كما يظهر البحر الأنثوي في نصوص أخرى، مثل:

يا أحزان الورقة..

من كان مراراً يقتل فيك البحر ويلعب دور القبطانْ

من كان مراراً يمنع أطباق اللؤلؤ من تجهيز الشطآن؟!

حيث تتحول السفن واللؤلؤ والشطآن إلى عناصر مائية رمزية تعبّر عن رحلة التعبير الفني والوجداني للأنثى، بينما يظل البحر رمزًا للمعاناة والصراع الداخلي بين الرغبة في الإبداع والقيود الواقعية والاجتماعية.

المزج بين الرمزية الوجودية والأنثوية

تقوم الشاعرة بمزج البعدين الوجودي والأنثوي، لتنتج نصوصًا شعرية متشابكة الدلالات ومعقدة الرمزية، بحيث تصبح كل مفردة مائية جزءًا من شبكة سيميائية مترابطة. فالبيئة المائية في النصوص (البحر، الماء، الأمواج، الأعماق، السفن، الغرق) تعمل ضمن منظومة متكاملة تتيح للباحث قراءة التجربة الإنسانية والوجدانية في آن واحد.

تجسد هذه الشبكة الرمزية في نصوص مثل:

إذا غادر الماء البحار فما له

من البحر غير الذكريات الموالح

يعيش غريباً في عيون تقعرت

ليُقحم بحراً في رمال الملامح

هنا، يظهر البحر كعلامة كلية، تتولد منه جميع الرموز والدلالات داخل الديوان. فالماء يمثل الحرية والانفتاح، بينما الرمال والذكريات تشكل ارتباطًا بالهوية والتجربة الفردية، مما يعكس تداخل البعد الأنثوي مع البعد الوجودي ويبرز البحر كمركز لتوليد المعنى.

يُظهر التحليل التأويلي أن هذا المزج يعزز عمق التجربة الشعرية للشاعرة، ويتيح للقارئ فهم النصوص في بعديها: الرمزي الوجودي والأنثوي، بما يعكس رحلة الذات في مواجهة الحياة، والمجهول، والصراعات الداخلية، والتعبير عن الذات الأنثوية المتشابكة مع الواقع النفسي والاجتماعي.

يتضح من خلال التحليل التأويلي أن البحر في ديوان هيفاء الجبري يتحول من عنصر طبيعي إلى علامة كلية تحمل أبعادًا وجودية وأنثوية متداخلة. البعد الوجودي

يبرز رحلة الإنسان في مواجهة المجهول والتأمل في المعاني الوجودية، بينما البعد الأنثوي يعكس تجربة الذات النسائية في الحنين والغربة والانكسار النفسي. ويؤدي المزج بين الرمزية الوجودية والأنثوية إلى إنتاج شبكة سيميائية متكاملة تعمل جميع المفردات المائية ضمنها، مؤكدة مركزية البحر في التجربة الإنسانية والوجدانية للشاعرة، ومؤكدة أهمية المنهج السيميائي في تحليل النصوص الشعرية المعاصرة.

الخاتمة

تخلص هذه الدراسة إلى أن البحر في ديوان هيفاء الجبري «البحر حجّتي الأخيرة» يشكل العلامة الكلية الأساسية التي تتمحور حولها النصوص الشعرية، حيث يتحول من عنصر طبيعي إلى فضاء رمزي ودلالي مركزي .ويظهر البحر في هذا الديوان كحجة أخيرة للشاعرة، وكميدان للتأمل والتحرر والتواصل مع الذات والعالم الخارجي، مما يبرز أهميته في تشكيل بنية النص الشعري وإنتاج المعنى.

أظهرت الدراسة أن البحر ليس مجرد علامة مستقلة، بل يرتبط بمجموعة من العلامات الفرعية مثل الأمواج والسفن والغرق والمد والجزر التي تعمل ضمن شبكة دلالية مترابطة. هذه العلامات تتيح للقارئ فهم الأبعاد النفسية والوجودية والأنثوية لتجربة الشاعرة، حيث تتحرك جميع المفردات ضمن منظومة سيميائية تكشف عن الصراع الداخلي، الحنين، الغربة، والتحولات العاطفية للشاعرة، بما يجعل البحر محورًا رئيسيًا يتفرع منه جميع الخطوط الرمزية والجمالية في الديوان.

أظهرت الدراسة أيضًا أن البحر في النصوص الشعرية للشاعرة يتحرك في بعدين متوازيين:

1. **البعد الوجودي:** يعكس رحلة الإنسان في مواجهة المجهول والتأمل في المعنى، والحياة والموت، الرحلة والاغتراب، وهو بذلك يشكل فضاءً فلسفيًا للتأمل في التجربة الإنسانية.

2. **البعد الأنثوي:** يمثل تجربة الذات النسائية في مواجهة الحنين والغربة والانكسار النفسي، ويحول البحر إلى فضاء وجداني يعكس الصراع الداخلي والتحرر العاطفي، بما يجعله علامة حية لتجربة الأنثى في النصوص الشعرية المعاصرة.

النتائج

بناءً على التحليل الدلالي والتحليلي والتأويلي للبحر في الديوان، يمكن استخلاص النتائج التالية:

- **البحر كعلامة كبرى:** يمثل محور النص الشعري، ويتولد عنه علامات فرعية متعددة تعكس أبعادًا نفسية ووجودية وأنثوية متشابكة.
- **شبكة العلامات الفرعية:** الأمواج تعكس التغيرات النفسية وديناميكية الذات، السفن ترمز للرحلة والاغتراب، الغرق يشير إلى المجهول والتوتر النفسي، والمد والجزر يعكسان التغير والتحولات العاطفية، بينما الجمع بين المتضادين (النار والماء) يولد رمزية مركبة متعددة الطبقات.
- **التكامل بين العلامات:** العلامات الفرعية لا تعمل بمعزل عن البحر، بل تساهم في بناء بنية نصية متماسكة، تؤكد على مركزية البحر في إنتاج المعنى وتوليد الرموز الدلالية.
- **البعد الوجودي والأنثوي:** البحر في الديوان يتحرك بين الرمزية الوجودية (الحياة، الموت، الاغتراب، التأمل) والرمزية الأنثوية (الحنين، الانكسار النفسي، التجربة العاطفية)، مما يعزز ثراء النصوص الشعرية وعمقها الدلالي.
- **فاعلية المنهج السيميائي البيرسي:** أظهر المنهج قدرته على تحليل العلامات الكبرى والصغرى، وتتبع العلاقات الداخلية بينها، والكشف عن أبعادها الرمزية والمعنوية، مما يجعل هذا المنهج أداة فعّالة لفهم الشعر النسوي المعاصر بشكل علمي ومنهجي.

التوصيات

استنادًا إلى النتائج السابقة، يمكن تقديم التوصيات التالية:

- توسيع الدراسات السيميائية لتشمل رموزًا طبيعية أخرى في الشعر العربي النسوي المعاصر.
- اعتماد مستويات تحليل متكاملة تجمع بين الدلالة والتحليل والتأويل عند دراسة الرموز الشعرية.
- تعزيز الاهتمام بالبعد الأنثوي في الشعر المعاصر، ولا سيما في تحليل الرموز المائية

والبيئية.

- توظيف المنهج البيرسي في التعليم الأدبي لما يوفره من أدوات دقيقة لتحليل العلاقات بين العلامات والمعاني.
- تعميق البحث في الشبكات الرمزية وربطها بالسياق الثقافي والاجتماعي للنص الشعري.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- الجبري، هيفاء. (2016). البحر حجتي الأخيرة. بيروت: مؤسسة الانتشار العربي. ISBN: 9786144048368.

المراجع:

- الأحمر، فيصل. معجم السيميائيات، معجم مرجعي في المصطلحات السيميائية، 2020م.
- الحربي، حسين. «مِنه دمشق: وجدان متدفق دون سابق إنذار»، قصيدة، الرياض، نُشرت في: الأحد 5 ذو الحجة 1441هـ / 26 يوليو 2020م.
- الشنطي، محمد. التجربة الشعرية الحديثة في المملكة العربية السعودية، حائل: النادي الأدبي، ط1، 1994م.
- غليسي، يوسف. «آليات الفهم والتأويل في الخطاب الشعري المعاصر: قراءة سيميائية في شعر يوسف وغليسي»، المجلة الجزائرية للأبحاث والدراسات، المجلد 40، العدد 40، أكتوبر 2021م، ص ص 805–835.
- محجوب، محمد حسين. «تشارلز ساندرز بيرس فيلسوف الأثر»، مجلة كلية الآداب – جامعة مصراتة، العدد 6، يونيو 2016م.
- مرتاض، عبد الملك. «الأصول السيميائية في فكر شارل بيرس»، أرشيف الشارخ للمجلات الأدبية والثقافية العربية، العدد 4، 1 يونيو 1992م.